الوراثة والعادة عند أفلاطون وأرسطو

ووساطة الفارابى بينهما

بقلم ابراهيم بيومى مدكور

دكتور فى الآداب والفلسفة

إن مشكلة الوراثة والعادة من المشاكل التى تشغل أذهان علماء الأخلاق والنفس والتربية إلى حد كبير. فهم يتساءلون: الأخلاق كلها موروثة يأخذها الخلف عن السلف، أم مكتسبة تنشأ وتنمو بالدربة والاعتياد. وإذا صح أن الطفل يرث صفات آبائه وأجداده، فعلى أى نظام يتم هذا التوارث؟ وهل له قوانين ثابتة يعتد بها؟ ثم إذا كنا نؤمن بالوراثة الخلقية، فما قيمة وسائل التربية والتعليم؟ وما مقدار نفوذها فى الإصلاح والتقويم؟

لا نحاول اليوم أن ندرس هذا الموضوع من جهة علم النفس التجريبى، ولا من ناحية البحوث الحديثة الخاصة بالطبائع فى أصولها وتكونها وطريق علاجها، وإنما نريد أن ندلى ببعض ملاحظات تاريخية قد تعيننا على فهم نقطة من أدق نقط علم النفس والتربية.

اختلف الناس ولا يزالون مختلفين فى أمر الوراثة والعادة وتعارضهما، ومقدار تغلب إحداهما على الأخرى. وقديماً قرروا أن الولد سر أبيه؛ كما قالوا: لكل امرئ من دهره ما تعودا. فمن مناد بالوراثة يعلى شأنها مدعياً أن الفضيلة فطرية لا مكتسبة، وأن الوعاظ والمصلحين لا يقوون على انتزاع خلق سيئ وتكوين آخر صالح؛ ومن معتد بالعادة يظن أنها المنبع الوحيد لمختلف الطبائع والخصال، والعلاج الناجع لتقويمها. ومشكلة كهذه ما كانت لتخفى على فلاسفة الإغريق، وخاصة أفلاطون وأرسطو اللذين يعتنقان، فيما يظهر، رأيين متباينين فى هذا الصدد. فبينما يرى الأول أن للوراثة قوة لا تسمو إليها العادة،

وأن الغرائز غير قابلة للتغيير ، إذا بالثانى يعلن أن الأخلاق كلها مكتسبة ، وأن العادة أهم عامل فى تكوين السجايا والخلال . لاحظ الفارابى هذا الخلاف الذى لم يتنبه اليه كثير من الباحثين السابقين ، وعرضه فى دقة وأمانة تامة . ولما كان يعتقد أن الفلسفة واحدة ، وأنه يجب أن يتفق الفلاسفة فيما بينهم ، اجتهد فى أن يوفق بين الفيلسوفين الاغريقيين فى رسالته المسماة : كتاب الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون الإلهى وأرسطوطاليس (١) . وهانحن أولاء تاركوه يشرح هذه المسألة التاريخية ، ومبينون إلى أى حد نجح فى مهمة التوفيق التى حاولها .

يقول فى رسالته الآنفة الذكر : إن ، أفلاطون يصرح فى كتاب السياسة (la République) وفى كتاب بوليطيا (le Politique) خاصة بأن الطبع يغلب العادة ، وأن الكهول حيثما طبعوا على خلق ما يعسر زوالهم عنه ، وأنهم متى قصدوا زوال ذلك الخلق عنهم ازدادوا فيه تماديا . ويأتى على ذلك بمثال من الطريق إذا نبت فيه الدغل والحشيش والشجر معوجة متى قصد خلاء الطريق منها أو ميل الشجر إلى جانب آخر ، فانها إذا خليت وسبيلها أخذت من الطريق أكثر مما كانت أخذت من قبل (٢) .

على العكس من ذلك ، يصرح أرسطو فى كتاب نيقوماخيا (l' Ethique à Nicomaque) أن الأخلاق كلها عادات تتغير ، وأنه ليس شىء منها بالطبع ، وأن الانسان يمكنه أن ينتقل من كل واحد منها إلى غيره بالاعتياد والدربة (٣) » .

لا يتردد القارىء لهذه النصوص فى أن يؤكد أنها تترجم عن نظريتين

(١) هذه الرساله هى الجزء الأول من المجموعة التى طبعها ديتريصى تحت العنوان الآتى : الثمرة المرضية فى بعض الرسالات الفارابية ، ليدن ، ١٨٩٠ ، وتوجد أيضا فى مجموعة فلسفة أبى نصر الفارابى .

(٢) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ١٦ — ١٧ . غنى عن البيان أن فى أسلوب الفارابى شيئا من الالتواء تأبى علينا أمانة النقل تعديله .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦ . ـ راجع أيضا فى — Aristote, l' Ethique à Nic. II, 111, 4, V, 2

متضادتين ؛ غير أن الفارابى يعتقد أن هذا التضاد فى الحقيقة صورى . وأن أفلاطون ، و إن نادى بالوراثة ،لاينكر مالعادة من يد فى اكتساب خلق ما ، كما أن ارسطو الذى يعتز بالعادة لاينفى الأخلاق الموروثة . ولئن بدا فى لهجة أفلاطون تمسكه بالغرائز الفطرية ، ما ذاك إلا لأنه يدرس النظم السياسية التى تعتمد اعتمادا أساسيا على هذه الغرائز . إذ من الواضح أنه يصعب كثيراً استبدال نظام سياسى بآخر ، فللعادة فى هذا المضمار أثر محدود . ومن الصعب كذلك أن نحاول إحلال خلق جديد محل خلق قديم موروث . ولكن هذه الصعوبة لا تلغى عمل العادة وأثرها فى اكتساب الأخلاق المختلفة ؛ فبين العسير والممتنع مرحلة لايستهان بها وعلى هذا يعترف أفلاطون ، فى رأى الفارابى ، بأن للعادة والتربية مجالا فى الحياة السياسية والخلقية ، و إن كان يُعوّل التعويل كله على الاستعداد الطبيعى . وكل ما يحاول إثباته إنما هو صعوبة الانتقال من خلق موروث إلى خلق مكتسب(١)

وأرسطو نفسه لا ينكر هذه الصعوبة وإن عد العادة أكبر سلاح فى تكوين الأخلاق المختلفة . فكل خلق فى ذاته قابل للتحويل ولأن يستبدل به غيره ؛ ومع هذا قد نلاقى أحيانا عناء كبيرا فى إحلال خلق محل آخر . ولم يفت أرسطو أن يلاحظ ، فى دقة ، أن اكتساب العادات يختلف باختلاف الأشخاص ؛ فبينما يكتسب شخص عادة ما بسهولة تامة إذا بالآخر يعز عليه اعتيادها .(٢)

فأفلاطون وأرسطو يناديان إذاً بالوراثة والعادة ، ويعتقدان أن التربية ناجعة فى التخلق بالفضيلة والخلوص من الرذيلة . وليست الغرائز الفطرية التى ينادى بها أفلاطون بمجهولة لدى تلميذه ؛ كما أن العادة التى يستمسك بها التلميذ ليست مهملة لدى أستاذه . بهذا الحل استطاع الفارابى أن يقف موقفا وسطا بين الفيلسوفين الاغريقيين ، وأن يقرب المسافة بينهما إزاء هذه المشكلة الدقيقة .

إذا بحثنا عن قيمة هذا التوفيق ومقدار نجاحه ، وجدنا أن أفلاطون الاجتماعى والأخلاقى يعلق كبير الأهمية على الاستعدادات الفطرية ؛ فهو يحاول أن يدعم السياسة والأخلاق على أسس صيكلوجية . فمن الوجهة السياسية يرى أن تقسيم

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ١٧ - ١٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

العمل والطبقات الاجتماعيه يجب أن تتلاءم، لامع الحاجات المادية وحدها ، بل مع صفات الأفراد المختلفة . فكل عمل من أعمال الجمعية يستلزم استعددات خاصة . فحب المال لدى الصانع ، والجرأة النبيلة لدى الجندى ، وبعدالنظر والتفكير العميق لدى حامى المدينة ، كل هذه تعتمد على صفات فطرية لا يستطيع أى نظام اجتماعى خلقها (١). ولابد أن يتوافر فى الرؤساء السياسيين بوجه خاص صفات غريزية ، عنى أفلاطون بسردها سردا مفصلا فى كتاب السياسة أو (الجمهورية) (٢). ومن الناحية الخلقية يعتقد أفلاطون كذلك أن الفضيلة محتاجة إلى طبائع أولية غير مكتسبة بالدرس والنظر . (٣) ويحدثنا فى إحدى محاوراته المسماة مينون — (Ménon) ـ سماها العرب مانن ـ عن معونة إلهية (concours divin) لابد منها لاكتساب الفضائل (٤) . ولسنا ندرى بالضبط ماذا يعنى بهذه المعونة الالهية ؛ العبارة فى ذاتها مبهمة و إن استعملها مؤسس الأكاديمى غير مرة ؛ ويخيل الينا أنه يريدبها الاستعداد الفطرى (٥) . وأن فيلسوفا يبنى نظرية المعرفة (la théorie de la connaissance) على أسس غريزية ، ويعتقد أن التعلم ليس الا تذكرا لمعلومات عرفت من قبل (Réminiscence) فى عالم سابق لعالمنا هذا ، لا يبدو غريبا منه أن يؤسس الفضيلة على دعائم موروثة . على أن أفلاطون يبالغ فى الاعتداد بالفطرة فى علم الأخلاق أكثر منه فى علم النفس ؛ فهو يسمح للقضاة بأن يحكموا بالموت على كل شخص رأوه غير قابل للاصلاح ، ويعلن ان الفضيلة التى تعتمد على العادة وحدها ليست إلا انقيادا آليا هو أشبه ما يكون بخضوع الأرقاء . (٦)

يبدو من هذا لأول وهلة أن أفلاطون يحارب العادة ويحمل عليها حملة شعواء ،

(١) Platon, République, 455 b.
(٢) Ibid, 490.
(٣) Brochard, Etuder, r. 177
(٤) Platon, Ménon, 100 a.
(٥) Ed, Zeller, Die Philosophie der Griechen . . . , 11, I, 594
(٦) Platon, République, 410 d = Phédon, 82 a.

غير أنه لا يهاجم إلا العادة العمياء التى لا تستضىء بضوء الفلسفة والتفكير المنتظم . أما العادة الصحيحة النيرة فهى ، فى نظره ، أساس تبنى عليه التربية والتثقيف . لذلك أخذ على نفسه أن يكون نظريات بيداجوجية عمادها العادات المتزنة . ونظرة إلى الجزء الثانى والثالث والسابع من كتاب الجمهورية ، وإلى تحريرها فى النواميس ، وبخاصة الجزء السابع تحملنا على أن نعد أفلاطون بين كبار مربى التاريخ القديم . ومرب لا يعتقد نجاح العادة فى مهمتها يناقض نفسه ويهدم أكبر عامل من عوامل دراسته . فلم يكن بدعا أن يجهد مربى الجمهورية نفسه فى تنمية الغرائز التى ورثها الأطفال عن آبائهم ، والتى تساعد على تنشئتهم تنشئة صالحة . وتلميذ سقراط لا يستطيع أن ينكر أن الفضيلة ممكنة الاكتساب تنال بالدربة والمرانة . نعم إنه يخالف أستاذه فى بروتاجورا — Brota goras (أو فروطا غورس كما سماه العرب) حيث ينقض هذه النظرية ؛ ولكن هذه المخالفه مؤقتة ، وما هى إلا لحظه حتى يعود أفلاطون الى اثبات أن الفضيلة قابلة للتعلم مادامت موضوع علم مستقل بذاته . (١)

بيد أن أرسطو ـ والحق يقال ـ هو أول فيلسوف أبان فى جلاء أثر العادة فى اكتساب الفضيلة ، ودرس ذلك دراسة تطبيقية وتحليلية استنتج منها قوانين عامة فهو يقرر أن « العادة هى التى تنمى الفضائل وتمكننا من نفوسنا ؛ فالمرء يصبح عادلا بتمسكه بالعدالة ، وحكيما بتعلقه بالحكمة ، وشجاعا بوقوفه مواقف الشجاعة (٢) » لا شك فى أن أفلاطون أرشد تلميذه إلى قيمة العادة فى التربية ، إلا أنه يرجع إلى التلميذ الفضل فى دراسة العادة ، لأول مرة ، دراسة نفسية وخلقية موسعة . فدراسته النفسية تدل على دقة وتعمق بالغين . وتحليله لبعض العادات الخلقية كان حليف الصواب فى أغلب الأحايين . ورغبة أرسطو فى رد الفضائل كلها إلى العادة تتفق مع مذهبه العام ، فان من يعتمد أولا وبالذات على الوقائع والحوادث المحسوسة لا يؤمن كثيراً بالغريزة وقوتها . فمذهب أرسطو الواقعى يسود فى كل مكان : ففى

(١) Id., Protagoras, 316 d.

(٢) Aristote, Ethique à Nicomaque, 11, I, 3, 4.

الدائرة الصيكلوجية يجزم بأن المحسوسات أصل المعلومات العامة ومصدر تكوينها؛ والأخلاق فى رأيه، لا تقل عن « الطبيعة » فى اعتمادها على الأفعال الملموسة والأشياء المشاهدة. لذلك كانت فنا (art) ينمو ويضعف بنفس الوسائل والأسباب التى تؤثر فى الفنون الأخرى (١). وعل هذا هو أكبر فارق بين الأخلاق عند أرسطو وأفلاطون؛ فبينما يعتد الثانى بالغرائز اعتدادا كبيرا، اذا بالأول لا يعول عليها كثيرا. فالفطرة (l' innéisme) محدودة النفوذ فى المذهب الأرسطى، سواء أكان ذلك فى الأخلاق أم فى علم النفس. وفى رأى أرسطو أن المرء يولد وفيه استعداد للخير كما أن فيه استعداداً للشر؛ ولكنا لا نستطيع أن نسمى واحداً من هذه الاستعدادات فضيلة أو رذيلة (٢).

وهنا يحق لنا أن نتساءل إذا كان أرسطو يؤمن بوجود استعدادات فطرية فكيف يلغى عملها؟. للاجابة عن هذا الاعتراض يلجأ الفارابى الى فكرة القوة والفعل (l' acte et la puissance) التى هى من أعقد النقط فى فلسفة أرسطو، والتى تدخل فى نواحيها المختلفة دون أن تشرحها شرحا وافيا. يقول الفيلسوف العربى: « إن الطفل الذى نفسه تعد بالقوة ليس فيه شىء من الأخلاق بالفعل ولا من الصفات النفسانية. وبالجملة فان كل ما فيه إنما هو بالقوة؛ ففيه تهيؤ لقبول الشىء وضده؛ ومهما اكتسب أحد الضدين يمكن زواله عن ذلك الضد المكتسب الى ضده »(٣). فعقلية الطفل عند الفارابى ليست لوحا أملس خاليا من كل نقش أو صحيفة بيضاء لا أثر فيها؛ كلا بل على ذلك اللوح نقوش وفى هذه الصحيفة رسوم. بيد أن هذه النقوش غير واضحة، وهذه الرسوم شاحبة بحيث يمكن تغييرها وتبديلها بحسب الإرادة (٤). هى نقوش ورسوم فى عالم القوة، فوجودها فرضى وحقائقها اعتبارية؛ ولا يمكنها أن تجاوز أفقها هذا إلى عالم الفعل الا بمؤثرات

(١) Ibid., II I 9,

(٢) Ibid., 11, VI, 2 ; 3 VI, XI.

(٣) الثمرة المرضية، ص. ١٧.

(٤) المصدر نفسه.

اخرى خارجية . هذا هو الحل الذى يتقدم به الفارابى ليحددقوة الغرائز ومدلولها من الناحية النفسية بوجه عام وفى رأى أرسطو بوجه خاص . وهو حل خاطىء فى جملته ؛ ذلك لأنه يعتبر الطفل صفحة غفُلا قابلة لكل ما يراد بها . ويكاد يقضى على الاستعدادات الفطرية ؛ فان الاستعداد الكامن فى عالم القوة أقرب الى العدم منه الى الوجود . نعم ان علم النفس التجريبى لم يصل بعد إلى أن يعين بالدقة الخصال الأولى لدى طفل ما ، غير ان هذه الخصال موجودة وتتعارض أحيانا مع وسائل التربية والتعليم . هناك صفات فطرية قطعا و ثابتة بالفعل لا بالقوة ؛ وفى مقدورنا ان نتبين الكثير منها لدى مختلف الأطفال .

فالفارابى وإن اخذ بالاستعدادات الطبيعية التى نادى بها أفلاطون هو إلى مذهب أرسطو اميل ، وما صيكلوجية الخصال ، فى عرفه ، الا أشبه بصيكلوجية المعرفة فكلنا يولد وهو مستعد لرؤية وفهم الأشياء الجزئية ، ولكن ذهننا فى أول لحظة نصل فيها إلى هذا العالم خال من كل فكرة عامة . كذلك يولد الطفل وفيه استعداد للتخلق بأى خلق أو تعود أية عادة ، دون أن يكون ذا خلق محدود أو عادة معينة ؛ وفى وسعنا أن نوجه استعداده حيث نريد . بل ، و أكثر من هذا ، الأخلاق المكتسبة ـ مثل المعلومات المكتسبة ـ تعادل فى رأى الفارابى الأخلاق الموروثة وقد يسميها أحيانا أخلاقا موروثة ، إذا ما وصلت إلى درجة خاصة من الثبات والاستقرار (١) . فالعادة والتكرار تعمل فى علم الأخلاق ما تعمله الحواس فى علم النفس : الأولى تخلق فينا من عدم صفات جديدة ، والأخيرة هى سبيل تكوين أفكارنا العامة . وهكذا يقود المذهب التجريبى (l'empirisme) دائما فى الأخلاق إلى مثل النتيجة التى يقود إليها فى علم النفس ، ومن العبث أن نحكم على آراء الفيلسوف الخلقية قبل أن نعرف نظرياته النفسية .

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨ — ١٩ .